المحاضرة الثانية: مقرر: علم الإنسان الثقافي ف٢- السنة الأولى- قسم علم الاجتماع

د. أميرة عرقسوسي

<u>عنوان المحاضرة: الأنثروبولوجيا وعلاقتها بالعلوم الأخرى</u>

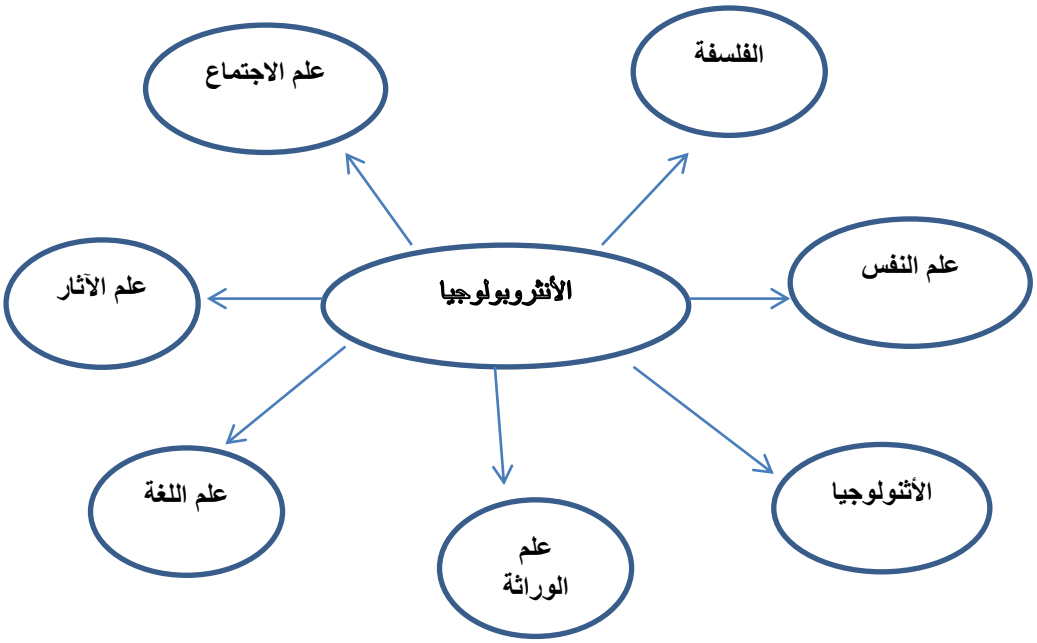

تشكل العلوم منظومة تتشابك فيها المعارف والموضوعات، ويبرز ذلك التشابك في نطاق منظومة العلوم الإنسانية والبيولوجية بشكل مباشر، نظراً لارتباطها بموضوع واحد هو الإنسان في جوانبه البيولوجية والحضارية والاجتماعية.

ويتعدى ارتباط الأنثروبولوجيا بالعلوم الاجتماعية نطاق علم اللغة وعلم النفس إلى أسس الفلسفة والمراحل التاريخية التي مرت بها المجتمعات.

وسيتم خلال هذه المحاضرة تحليل أوجه التشابك بين الأنثروبولوجيا وبعض العلوم الاجتماعية الأخرى وذلك من خلال بعض الموضوعات التي تتشابك حلقاتها في المجالات المذكورة.

أولاً- الأنثروبولوجيا والفلسفة:

الفلسفة أم العلوم، حيث كان الفيلسوف عالم رياضيات وفيزياء وكيمياء وصاحب نظرة شمولية تفسر علاقة الإنسان بالطبيعة وعلاقته بالكون والمجتمع. وقد أدى

التخصص وتقسيم العمل إلى تعدد ميادين المعرفة ومجالاتها، فابتعدت بعض اختصاصاتها وطرائق البحث فيها عن الينبوع الأساس.

إلا أن تقسيم هذا التخصص والتقسيم يجب ألا يبعد عن أذهاننا الرباط الوثيق الذي يصل الأصل (الفلسفة) بالفروع (العلوم الإنسانية والاجتماعية وحتى الطبيعية منها).

وتقع العلاقة بين الفلسفة والأنثروبولوجيا ضمن ذلك المنظور، وخصوصاً فيما يتعلق بنظرة الإنسان لمفهوم الزمان والمكان، فإدراك الإنسان للزمان لم يكن واحداً عبر العصور، كما أن فهم الفلاسفة له لم يكن واحداً، فقد اختلفوا حوله اختلافاً بيناً.

وهنا يمكن ذكر أحد التعريفات للزمان وهو تعريف (أبو العلاء المعري) للزمان بأنه: كون يشتمل أقل جزء منه على عامة الموجودات.

وإذا كان إدراك الفلاسفة للزمان مثار تباين واختلاف في الرأي، فإن فهم الإنسان له كان أشد التصاقاً بواقعه وما يمر فيه من أحداث؛ فبعض الساعات تمر ثقيلة ويشعر الإنسان بوطأتها عندما يحل به المرض والألم، بينما تكون اللحظات سريعة في أيام السعادة والمتعة.

كما أن تعريف الزمان والمكان ملتصقان بالحياة الاجتماعية، فتعريف الإنسان في البادية لمعنى الزمان، يختلف عن إدراك الفلاح له أو العامل في المدينة...إلخ.

كما أن المفهوم الخالد لمعنى الموت والحياة وارتباط حياة الإنسان بعد مماته بمن يحب مسألة طال البحث فيها في نطاق الأنثروبولوجيا، وخاصة عندما ربط العلماء بين روح الإنسان وجسده وأحلامه ويقظته وآماله وواقعه إلى آخر ما هنالك من تفسيرات متعددة ومتباينة لمفهوم الوجود والخلق والعدم.

ثانياً- الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع:

<u>س١: أين يكمن الارتباط بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع؟</u>

إن أوثق ارتباط بين الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية الأخرى يبرز من خلال علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الاجتماع. والتشابك بين العلمين يتعدى نطاق المعلومات إلى أسلوب البحث وطريقته، حتى غدت الأنثروبولوجيا الاجتماعية في رأي بعض علماء الاجتماع امتداداً لدراساتهم، فعرفت الأنثروبولوجيا الاجتماعية في بعض البلدان على أنها علم الاجتماع المقارن. وقد رأى بعض علماء الاجتماع أن هذا التشابك بين المجالين يطمس معالمهما لذلك كان التأكيد على أن الأنثروبولوجيا

الحضارية هي السمة المميزة للأنثروبولوجيا، بينما تشكل الأنثروبولوجيا الاجتماعية مجالاً يقترب من علم الاجتماع.

س٢: ما هي التباينات بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع؟

تتمثل بعض التباينات المنهجية بين العلمين في وحدات التحليل المستخدمة في الإطلالات النظرية.

كما يبرز التباين بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع من خلال فهم ورؤية الظواهر الاجتماعية، ففي نطاق الأنثروبولوجيا يكون التشخيص معتمداً على فهم الواقع كما هو عندما يفصح الأفراد فيه عن ذاتهم استناداً إلى المشاركة والملاحظة والتفاعل والعيش والاختلاط بالأفراد ضمن الجماعة.

فالأنثروبولوجي يربط بين النسق الاجتماعي والإطار العام للمجتمع المحلي، بينما يدرس الباحث الاجتماعي الترابط بين الظواهر والنظم الاجتماعية، فعالم الاجتماع يتدخل في الصلة بين الإنسان والحضارة والنسق الاجتماعي من خلال بعض الافتراضات والقوالب النظرية التي تضع المتغيرات في موقعها الصحيح، فلا يترك الواقع يفصح عن ذاته كما يشاء بل يضعه في قوالب نظرية محددة يبدأ بها البحث عادة.

فمثلا عالم الأنثروبولوجيا عند دراسته للقرية فإنه يبحث في النسق الاجتماعي متمثلاً بتاريخ القرية وتطورها والعادات والتقاليد وأسلوب التنشئة والأمثال الشعبية والأقاويل الشائعة ليعطي فهماً أعمق عن كل ما يجري لموضوع دراسته وهو القرية. كما أنه يستخدم في دراسته وسائل كثيرة وخاصة كالملاحظة والاستبانة ونقل الصور الحية، وذلك لدراسة الإنسان في حياته العامة والخاصة.

بينما يسلك عالم الاجتماع مسلكاً آخر، فهو يتجه نحو دراسة القرية استناداً إلى استمارة تحوي أسئلة وترتبط بالنظرية الاجتماعية وبالافتراضات المحددة لمجموعة من الأسئلة.

وبذلك يتضح لنا الاختلاف في الأسلوب والمنهج المعتمد في الدراسة.

ثالثاً- الأنثروبولوجيا وعلم النفس:

تبرز علاقة الأنثروبولوجيا بعلم النفس في النقاط الآتية:

- اهتمامهما بدراسة السلوك الإنساني، واستنباط العوامل المفسرة له. وإذا كان اهتمام علم النفس على المستوى التحليلي متبايناً مع اهتمامات

الأنثروبولوجيا، إلا أن الدراسات الرائدة لبعض علماء النفس الاجتماعي ومحاولتهم استخلاص النسق الحضاري من خلال تحليل بعض الأمراض النفسية المرتبطة بالجذور الاجتماعية جعل منهم رواداً في الأنثروبولوجيا كما كانوا كذلك في مجالات علم النفس.

- كما تبرز علاقة علم النفس بالأنثروبولوجيا من خلال اهتمامها في دراسة أوجه العلاقة بين النفس والمجتمع بالرجوع إلى المعطيات الحضارية وأصولها المتجددة عبر مراحل التغير والتبدل، فدراسة حاجات الإنسان تخضع للتبدل والتغير وكذلك مسائل الحرمان والكبت الاجتماعي.

وقد حلل (فرانز فانون) الحرمان فوجد أن بعض أنواعه يعود إلى المجتمع وليس إلى النفس فحسب، فالحرمان محكوم بأصوله الاجتماعية قدر انبعاثه عن متغيرات نفسية.

- والجدير بالذكر أن دراسات (فرويد) المرتبطة بتفسيره للأحلام تنقلنا من عالم الأمراض النفسية إلى تاريخ المجتمعات الإنسانية، حيث كثيراً من الأنثروبولوجيين يجدون في دراساته للأحلام والمرض النفسي والرموز التي يستخدمها الإنسان في التعبير عن واقعه منبعاً لدراسات أنثروبولوجية معاصرة.
- وتطرح مسألة الوراثة الحضارية تساؤلات حول السلوك الإنساني الذي هو حصيلة متغيرات عديدة تتفاعل فيها العناصر البيولوجية والنفسية والاجتماعية والحضارية، وهذا التصور ينسجم مع النسق المعرفي للأنثروبولوجيا الذي نرى فيه نظاماً متكاملاً تتراكم فيه المعارف، وتترابط ضمن أطره الأنساق المعرفية الجزئية.
- وهكذا تتشابك دراسات علم النفس مع دراسات الأنثروبولوجيا في حلقات يشكل السلوك الإنساني فيها الأساس . غير أن هذا الارتباط بين علم النفس والأنثروبولوجيا يجب ألا يطمس معالم التباين بينهما، خاصة بالنسبة للمتغيرات التي تستخدم في تحليل الحادثة الإنسانية، وبالأطر المنهجية التي يتبعها كل علم في مجاله المحدد.

رابعاً- الأنثروبولوجيا والأثنولوجيا:

س١: ما هي الأثنولوجيا؟

الأثنولوجيا: هي العلم الذي يدرس الأجناس والسلالات البشرية في نشأتها وخصائصها المميزة، وكذلك في نموها وتطورها والعوامل التي خضعت لها في هذا التمايز، كما تهتم بدراسة الفروض والنظريات التي وضعت لتصنيف الشعوب

على أساس الخصائص والمميزات السلالية والثقافية، وبيان مدى رد الإنسانية إلى جنس واحد أو أكثر، وما يثار من جدل حول الجنس الأمثل والفروق العنصرية وأثرها في التنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

وقد يقتصر هذا العلم على دراسة الشعوب والثقافات وتاريخ حياة الجماعات دون النظر إلى مدى تطورها وتقدمها.

وقد عرف (برتشارد) الأثنولوجيا: بأنها علم تصنيف الشعوب على أساس خصائصها ومميزاتها السلالية والثقافية، وتفسير توزعها في الماضي والحاضر نتيجة لتحركها واختلاطها وانتشار الثقافات.

ويدخل ضمن الأثنولوجيا عدد كبير من التخصصات: كدراسة الأساطير والآداب الشعبية والموسيقا واللغات والرقص ونظم القرابة والأسرة في المجتمعات البدائية، بالإضافة إلى البحث في أنشطة تلك المجتمعات الاقتصادية وأنظمتها الحكومية والقانونية والدينية...الخ من التخصصات.

س٢: ما هي العلاقة بين الأثنولوجيا والأثنوغرافيا؟

بداية لابد من توضيح ما المقصود بالأثنوغرافيا: تعني وصف الشعوب، فهي الدراسة الوصفية للمجتمعات الإنسانية، وخصوصاً المجتمعات البدائية. وكذلك تهتم الأثنوغرافيا بجمع المعلومات وشرحها بطريقة وصفية أكثر مما تعني بتحليلها واستخلاص بعض الفروض والنظريات منها.

ويتضح الارتباط الوثيث بين الأثنولوجيا والأثنوغرافيا من خلال التركيب اللغوي لكل منهما، حيث يتحدد المعنى اللفظي لاصطلاح الأثنوغرافيا بالكتابة عن الأجناس، فكلمة (أثنو) تعني جنس، وكلمة (غرافيا) تعني كتابة، وتقتصر الدراسة في الأثنوغرافيا على الناحية الوصفية للحضارات، فمهمة الباحث الأثنوغرافي هي جمع البيانات دون تقديم تفسير أو تحليل لها، أي تقتصر على وصف حضارة ما دون أي تعليق عليها. بينما التحليل والتفسير يكون مهمة الباحث الأثنولوجي.

فالأثنولوجيا تستفيد عملياً من البيانات التي تزودها بها الأثنوغرافيا، ليقوم الباحث الأثنولوجي بعد ذلك بتصنيف الحضارات في مجموعات وأشكال على أساس مقاييس معينة وتحليلها واستخلاص المبادئ منها ليعمد بعد تحديد موضوع دراسته إلى إقامة الفروض والنظريات التي تتعلق بطبيعة التصرفات الإنسانية والنماذج الحضارية ووظائفها ووضع الطرق والوسائل لمعرفة صحتها.

س٣: أين يكمن الارتباط بين الأنثروبولوجيا والأثنولوجيا؟

يتحدد الارتباط الوثيق بين الأنثروبولوجيا والأثنولوجيا في دراسة حضارة الإنسان وتمايزها والطرائق التي يستجيب بها الإنسان إلى ذلك التمايز والعناصر التي تشكل الحضارة والعوامل التي تعمل على انتشارها من مجتمع لآخر وانتقالها من جيل إلى جيل في المجتمع الواحد.

فالإنسان كما هو معروف يكتسب قدراته عن طريق التعلم والتدريب وما يختزنه من تراث ينتقل عبر الأجيال، فتولد معارف عامة يستخدمها في علاقاته مع البيئة المادية ومع أخيه الإنسان. والحضارة الإنسانية تتمايز من مجتمع إلى آخر كما أنها تتجدد بتجدد العلاقات الاجتماعية وتبدل الظروف الاقتصادية والاجتماعية.

وقد أعطى هذا التنوع مادة لعلماء الأنثروبولوجيا الحضارية والأثنولوجيا ليبحثوا في أسس تكوين الحضارات وأنماط توزعها وأسلوب انتشارها والعوامل التي تؤدي إلى انتقالها من جيل إلى آخر، والعناصر العامة التي تشكل مضمونها والرموز التي يستخدمها الإنسان في التعبير عنها.

ويؤكد العلماء على أهمية ذلك التمايز وأثره على سلوك الإنسان، فالحضارة تضغط باتجاه التمايز بين المجتمعات من جهة والتصاق سلوك الأفراد برموز الحضارة ومعانيها من جهة أخرى.

خامساً- الأنثروبولوجيا وعلم الآثار:

س١: ماذا يدرس علم الآثار؟

يدرس علم الآثار ماضي الإنسان ويبحث في الحضارات القديمة والمراحل البعيدة للمدنيات الغابرة، كما يرمي إلى تحديد التغير الحضاري وتتابعه على مر العصور، ويهدف إلى إعادة بناء الحياة الاجتماعية لمجتمعات ما قبل التاريخ.

س٢: هل يوجد اختلاف بين علم التاريخ وعلم الآثار؟

نعم يوجد اختلاف بين العلمين؛ فعالم التاريخ يدرس الأوقات المسجلة كتابة للمدنيات الكبرى والحوادث الماضية المؤرخة، حيث يعمد إلى حد كبير على الوثائق والمخطوطات وغيرها من الوسائل التي تنقل أحداث التاريخ، بينما يهتم عالم الآثار وكذلك العالم الأنثروبولوجي بالأزمنة والمراحل التاريخية الطويلة التي قضاها الإنسان قبل اكتشاف القراءة والكتابة.

فالأنثروبولوجي وإن كان يستخدم الوثائق المكتوبة للحضارات الماضية إلا أنه يعتمد بشكل رئيسي على بقايا الحضارات التي خلفها الإنسان، حيث ينصب اهتمامه

حول الآثار ليرسم صورة أشبه ما تكون إلى الأصل المنقرض وإم لم تطابقه وذلك باستخدام أساليب دقيقة في القياس ليصل إلى أكبر قدر ممكن من الدقة والتحديد في القياس الزمني.

س٣: أين تكمن العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم الآثار؟

يعتمد الأنثروبولوجي على علم الآثار في تفسير وتقويم الأعمال التاريخية للإنسان بما يمكن من إعادة تشكيل التاريخ الاجتماعي والبيولوجي بأقرب الأشكال إلى الزمن الراهن، وعندما تعتمد الأنثروبولوجيا في بحوثها على معطيات علم الآثار، فإنها بما تتوصل إليه من نتائج تضيف بدورها إلى تلك المعطيات أبعاداً جديدة ترتبط بنظريات الارتقاء والأصول الأولى للحياة.

وترتبط الأنثروبولوجيا الطبيعية بحلقات أوسع مع علم الآثار حتى باتت موضوعاتها تدرس في بعض الجامعات بأقسام الجيولوجيا، كما أضحت المتاحف والآثار مادة غنية للأنثروبولوجي يستعيد بها التاريخ القديم، فيربط بين معطيات الآثار وما تبقى من أطلال توارثتها الحضارات إلى مستمسكات مادية لبناء الأصول المعاصرة للمجتمعات الإنسانية.

كذلك يتعاون علماء الآثار مع الأنثروبولوجيين والأثنولوجيين والمؤرخين في أبحاثهم ويستفيدون أيضاً من أبحاث ودراسات علماء الجيولوجيا وعلماء النبات والحيوان والمناخ في تأريخ وتحقيق هوية البقايا التي يكتشفونه، وأكثر ما يتعاون علماء الآثار مع علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية وذلك لكثرة وجود الحفريات الإنسانية مع البقايا الحضارية.

والجدير بالذكر هنا توصل العلماء إلى أساليب دقيقة لحفر طبقات الأرض التي يحتمل وجود بقايا حضارية فيها، كما اهتدوا إلى طرائق دقيقة لفحص تلك البقايا وتسجيلها وتحديد المواقع التي توجد فيها وتصنيفها للتعرف عليها ومقارنتها ببعضها، ويستطيع العلماء بواسطة تلك الطرائق استنتاج الكثير من المعلومات عن الحضارات القديمة وتغيراتها واتصالاتها بغيرها.

سادساً- الأنثروبولوجيا وعلم اللغة:

س١: ما هو علم اللغة؟

يهتم علم اللغة بلغات المجتمعات المدروسة من حيث أصولها وتطورها وتركيبها. وتعد اللغة من أهم عناصر الحضارة والتبادل بينهما واضح.

وينقسم علم اللغة إلى قسمين هما:

- علم اللغة الوصفي: يهتم بتحليل اللغات في زمن محدد، ويدرس النظم الصوتية وقواعد اللغة والمفردات. ويعتمد الأنثروبولوجي اللغوي في دراساته على اللغة الكلامية، لذلك يستمع إلى الأفراد وخاصة أن معظم أبحاثه تكون مرتبطة بلغات كلامية لم تكتب بعد، فيقوم بكتابة تلك اللغات عن طريق استخدام رموز دولية متعارف عليها، وتتركز معظم هذه الدراسات في المجتمعات البدائية التي لم تعرف القراءة والكتابة، ولكن لها لغة كلامية خاصة بها، إذ لا يوجد مجتمع إنساني مهما تخلفت حضارته بدون لغة كلامية.

-علم أصول اللغات: يختص بالجانب التاريخي والمقارن، حيث يدرس العلاقات التاريخية بين اللغات التي يمكن متابعة تاريخها عن طريق وثائق مكتوبة.

وتبرز المشكلة بالنسبة للغات القديمة التي لم تترك وثائق مكتوبة، إلا أنه توجد وسائل خاصة لبحث تلك اللغات وتحديد أصولها الإنسانية.

س٢: بماذا يختلف الأنثروبولوجي عن دارس اللغات؟

يختلف الأنثروبولوجي عن دراس اللغات لمجرد معرفتها أو عن الفقيه اللغوي الذي ينظر إلى اللغة كوسيلة لفهم أدق للتراث من الناحية الأدبية، فالأنثروبولوجي يهدف إلى الكشف عن الأصول التاريخية لنشأة اللغة عموماً، والمجموعات المتشابهة فيها على وجه الخصوص، ويقارن اللغات بعضها ببعض ليحدد الظواهر اللغوية الشائعة بينها على وجه العموم، وبناء على ذلك يتمكن من فهم العلميات والتطورات التي أدت إلى نشأة اللغة وتطورها واختلافها. كذلك يسجل لغات المجتمعات البدائية ليحيلها إلى لغات مكتوبة تخضع للتحليل اللفظي ومن ثم يستخرج مضمونها الحضاري. كذلك يهتم بدراسة العبارات والمقاطع التي يقتصر استعمالها فقط على الطقوس والشعائر، ويجري مقارنة بين التغيير الاجتماعي الحاصل لحضارة مجتمع ما وبين ما ينعكس من تغير مواز في مفردات لغة هذا المجتمع. كما يركز الأنثروبولوجي اهتمامه على الكشف عن كيفية نقل اللغة من جيل إلى جيل وكيف أن عمليات التوريث اللغوي هذه تنقل معها عقائد وتقاليد وأعراف المجتمع.

س٣: ما هي العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم اللغة؟

يوجد ارتباط وثيق بين علم اللغة والأنثروبولوجيا الحضارية، وذلك لأن على كل منهما دراسة لغة المجتمع الذي يبحثانه، ولا يتم ذلك إلا عن طريق دراسة مبادئ علم اللغة.

لكن لعلم اللغة أقسام مستقلة في الجامعات، ويعود السبب في ذلك إلى إمكانية دراسة اللغة وتحليل عناصرها بصورة مستقلة عن بقية عناصر الحضارة. ويقوم المتخصصون في تلك الأقسام بتدريس مادة اللغويات وفروعها لطلبة أقسام الأنثروبولوجيا والأثنولوجيا.

سابعاً- الأنثروبولوجيا وعلم الوراثة:

تبحث الأنثروبولوجيا الطبيعية في الجوانب البيولوجية للإنسان، والعوامل التي أثرت في تكوين السلالات البشرية، وساهمت في اختلاف وتوزع أجناس الإنسان وتعددها بين قوقازي وزنجي ومغولي، رغم انتمائها جميعاً إلى فصيلة واحدة هي فصيلة الإنسان العاقل. غير أن الاختلاف لا يكمن إلا في الشكل وفي الصفات الخارجية فقط ، ويبقى التركيب الداخلي والبيولوجي واحداً بين جميع أفراد الجنس البشري. وتتعين العوامل التي تسهم في تحديد الاختلافات بين أفراد النوع الواحد عن طريق التنوع بشطريه الدخيل والوراثي، الذي أطلق عليه بعض العلماء اسم التنوع الأصيل لتمييزه عن التنوع الدخيل الذي يتم من خلال عوامل أخرى لا ترتبط بالوراثة.

وبذلك فإن الأنثروبولوجيا الطبيعية عندما تبحث في الاختلافات الكامنة في النوع الواحد فإنها تأخذ بعين الاعتبار في دراستها عوامل البيئة والمحيط الخارجي من جهة، والعوامل الداخلية المرتبطة بالوراثة من جهة أخرى.

وقد أضحت الدراسات الأنثروبولوجية تعتمد على علم الحياة بشكل عام وعلى علم الوراثة بشكل خاص، حيث أصبحت قوانين الوراثة مدخلا هاماً لفهم التنوع الأصيل.

وإذا كان اعتماد الأنثروبولوجيا على علم الوراثة اعتماداً كبيراً، فإن الأنثروبولوجيا تمد علم الوراثة بمعطيات تتعدى المسائل البيولوجية المحضة إلى التباين في انواع السلالات البشرية وأثر البيئة في تعديل الصفات الجسدية للإنسان. وهكذا يبرز التشابك والتداخل بين المجالين في كل من الموضوعات والمعارف العلمية.

نهاية المحاضرة

مع أمنياتي بالتوفيق